

وكانت تلك الأيام الطوال التقال التي قضتها صاحبنا في القاهرة مروًعا ملتفاً بعد أن حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريده؛ فقد أسلمته هذه الصدمة القاسية إلى هم متصل ذات عنه النوم، فلم يكن يذوقه إلا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير، وانتهى به العداء إلى أقصاه، بعد ليل مُسْهَدٌ وفكِّر مُشَرَّدٌ ونفس قلقة عرفت كيف تَنَسَّلُ من ماضيها الثقيل، في تلك الأيام كان الفتى فارغ النفس والقلب، يصبح فلا يجد أمامه عملاً ينفق فيه بياض النهار، فلا يحس من التعب والجهد ما يغريه بالنوم أو يغري به النوم. يرى نفسه بعد أن جاوز العشرين لا يزال عيالاً على أبيه الذي أتقنه نفقة البنين، وعلى أخيه الذي جعل يعمل في الجمعية الخيرية الإسلامية متظراً ذلك المنصب الذي جدَّ وكَدَّ في سبيله، وزاده درسه لأبي العلاء بغضًا لنفسه، ورأى نفسه ذات يوم وقد انتهى به الشأوم والضيق إلى حيث ندم على ما فرط في جنب الأزهر وشيوخه حتى حيل بينه وبين درجة العالمية تلك التي كان يسخر منها أشدَّ السخر، بعد أن صرفت عنه فلم يحاول أن يستأنف السعي إليها. ولما أثقلت بهذه الحياة البغيضة على قوم من حقهم أن توضع عنهم الأثقال، والغريب أنه كان يختبر لنفسه هذه الحياة المُرّة البغيضة اختراعاً، فهو لم يشعر من أبيه ولا من أخيه ببعض ما كان يجد في نفسه من الحزن والضيق واليأس. وإنما جرت الصلة بينه وبين أسرته مطردة كما كانت تجري من قبل لم يتغير فيها شيء، ولم ينْبُتْ به مكانه في بيته ذاك ولا مكانه في القاهرة بين صديقه، وإنما هو الذي كان يضيق باطراد الصلة وامتداد حياته على هذا النحو بدون أن يتغير قليلاً أو كثيراً. فيم إذن كَدَّ وشقَّ وتكلَّفَ من الدرس والامتحان، وظفر بما ظفر به من النجح؟ وفيما كثر الحديث عنه والاحتفاء به؟ وفيما كانت هذه الأحلام الحلوة والأمال العراض؟ أكان هذا وسيلة إلى هذه الحياة الفارغة التي يحياها، وإلى أن يصبح آخر الأمر كَلَّا على أسرته أينما توجَّهَ لا يأتِ بخير؟ وهو على ذلك لا يُظهر لأحد شيئاً من ضيقه وتبرُّمه وياسه، ثم يخطر له ذات يوم خاطر يُخرجُه من الملل واليأس، ويدفعه لا إلى الأمل بل إلى محاولة الأمـل. وهو لا يريـد من الجامعة أجرًا، فـما ينبغي أن يكون عيالاً عليها، وأن وجوده في هذه الدنيا ليس عبئاً ولا لفواً، صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية كانت هذه الحرب الحاضرة مؤخراً لي عن السفر إلى باريس والالتحاق بطلبة إرسالية الجامعة، وأنا مضطـر إلى أن أبقى بمصر ريثما تنتهي هذه الحرب، فقد أردت أن أمضي هذه السنة في تدريس تاريخ الآداب العربية في الجامعة بغير أجر، وأبعث في الآداب وتاريخها شيئاً من الحياة غير قليل، وله الشكر والجميل. وكلف علوـي باشا رحـمه الله شيئاً: أحدهما؛ وأخذ علوـي باشا يسامـون الفتى في هذه المكافأة، فعرض عليه أول ما عرض أن تكون مكافأته بمقدار ما يكون من إقبال الطلاب على درسه، وأن تفرض الجامعة على الذين يختلفون إلى هذا الدرس رسمـاً يسيراً، ولكن صاحبـنا اعتذر من قبول هذا العرض؛ لأنـه يجعلـه مدينـاً لطلـابـه دينـاً مباشرـاً بما يرزـقـ من مرتب آخرـ الشهرـ. قال علوـي باشا: وإنـ فـستـعـطـيكـ الجـامـعـةـ مـكـافـأـةـ قـدـرـهاـ خـمـسـةـ جـنيـهـاتـ فيـ كـلـ شـهـرـ، وهـيـ أـكـثـرـ مـاـ كانـ الأـزـهـرـ يـعـطـيـكـ لـوـ جـلـسـ مـجـلسـ الأـسـتـاذـ. واستـخـذـيـ الفتـىـ مـنـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ كـلـهـ فـلـمـ يـرـجـعـ عـلـىـ عـلـوـيـ باـشـاـ جـوـاـبـاـ، رـاضـيـاـ معـ ذـلـكـ شـيـئـاـ مـنـ رـضـاـ، وـلـيـسـ بـقـلـيلـ أـنـ يـقـالـ عـنـهـ: إـنـ أـسـتـاذـ فـيـ الجـامـعـةـ. وـلـكـنـ لـمـ يـنـسـ الـحـربـ التـيـ تـحـولـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ بـارـيسـ. وإنـ لـغـارـقـ فـيـ الأـدـبـ الـأـنـدـلـسـيـ يـقـرـؤـهـ مـعـ صـدـيقـ ذـاكـ الذـيـ قـرـأـ مـعـ أـبـاـ العـلـاءـ، وـيـقـرـؤـهـ مـعـ خـادـمـهـ كـلـمـاـ غـابـ عنـهـ صـدـيقـ ذـاكـ، وـإـذـ الجـامـعـةـ تـدـعـهـ فـيـذـهـبـ إـلـيـهاـ عـجـلـاـ وـجـلـاـ ذاتـ ضـحـىـ، وـهـنـاكـ يـلـقـىـ عـلـوـيـ باـشـاـ رـحـمـهـ اللهـ فـيـسـتـقـبـلـهـ باـسـمـاـ لـهـ رـفـيقـاـ، فـقـدـ اـنـجـلـتـ الغـمـرـةـ بـعـضـ الـانـجـلـاءـ، وـانـهـزـمـ الـأـلـمـانـ أـمـاـنـ بـارـيسـ، وـمـنـذـ ذـلـكـ الـيـوـمـ أـقـبـلـ الفتـىـ عـلـىـ تـهـيـةـ نـفـسـهـ للـسـفـرـ مـسـتـأـنـفـاـ حـيـاتـهـ تـلـكـ التـيـ كـانـ تـمـلـؤـهـ الـأـحـلـامـ الـعـذـابـ، وـيـحـيـاـ مـعـهـ فـرـنسـاـ، لـيـتـمـ درـسـهـ هـنـاكـ، وـيـعـيـنـ أـخـاهـ عـلـىـ الـحـيـاةـ الشـاقـةـ فـيـ تـلـكـ الـبـلـادـ الغـرـيـبةـ النـائـيـةـ. وـقـدـ أـبـتـ الجـامـعـةـ أـنـ تـحـتـمـلـ مـنـ نـفـقـهـ هـذـاـ الـأـخـ قـلـيـلـاـ أوـ كـثـيرـاـ، وـعـلـىـ غـيرـ نـظـامـ مـطـرـدـ. وـفـيـ الـرـابـعـ عـشـرـ مـنـ شـهـرـ نـوـفـمـبرـ أـبـحـرـ الفتـىـ مـنـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ، كـانـ قـدـ ظـفـرـ بـالـشـهـادـةـ الـثـانـيـةـ، وـعـمـلـ فـيـ دـيـوانـ مـنـ دـوـاـبـينـ الـحـكـوـمـةـ، وـلـكـنـ كـانـ يـحـسـنـ التـدـبـيرـ وـالـاقـتصـادـ، وـيـسـافـرـ إـلـيـ بـارـيسـ فـيـ كـلـ عـامـ لـأـدـاءـ الـامـتـحـانـ. حـتـىـ إـذـ أـتـمـ الـدـرـسـ طـمـعـ فـيـ أـكـثـرـ مـنـ الـدـرـجـةـ التـيـ ظـفـرـ بـهـ، وـاتـصـلـ بـعـلـوـيـ باـشـاـ فـقـصـاـ عـلـيـهـ قـصـتـهـ، وـتـأـثـرـ الـبـاشـاـ بـهـذـهـ الـقـصـةـ، وـقـدـرـ أـنـ هـذـاـ الفتـىـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ حـرـيـصـاـ عـلـىـ الـعـلـمـ مـحـبـاـ لـهـ مـشـغـوفـاـ بـهـ، لـمـ يـحـفـلـ بـتـقـدـمـ سـنـهـ، وـكـانـ قـدـ تـخـرـجـ فـيـ دـارـ الـعـلـومـ، وـأـرـسـلـ إـلـيـ فـرـنسـاـ لـتـخـصـصـ فـيـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ، فـأـقـامـ فـيـهـ سـنـينـ مـتـصـلـةـ، فـيـ كـثـيرـ مـنـ جـهـ، وـكـانـ اـسـمـهـ «ـأـصـبـهـانـ»ـ؛ وـكـانـ تـؤـثـرـ الـمـهـلـ عـلـىـ الـعـجـلـ، وـتـفـضـلـ الـأـنـةـ عـلـىـ السـرـعـةـ، وـتـخـفـفـ مـنـ عـمـامـتـهـ، مـضـطـرـةـ بـعـدـ ذـلـكـ أـشـدـ الـاضـطـرـابـ. وـلـاـ فـيـ أـوـلـ الـمـغـامـرـةـ وـلـاـ آخـرـهاـ، وـإـنـماـ شـغـلـ بـزـيـهـ الـجـدـيدـ سـاعـةـ وـبـعـضـ سـاعـةـ، فـلـمـ يـفـرـغـ مـنـهـ إـلـاـ حـينـ أـتـمـ السـفـيـنةـ رـحـلـتـهـ وـانـتـهـتـ بـهـ إـلـىـ مـارـسـيلـياـ ذاتـ مـسـاءـ بـعـدـ ثـمـانـيـةـ أـيـامـ طـوـالـ حـافـلـةـ بـالـفـزـعـ وـالـرـوـعـ وـالـضـيقـ. ٠٠٠ـ وـقـدـ لـزـمـ الفتـىـ غـرـفـتـهـ تـلـكـ مـنـذـ دـخـلـ السـفـيـنةـ إـلـىـ أـنـ خـرـجـ مـنـهـ، وـلـمـ يـذـهـبـ إـلـىـ غـرـفـةـ الـمـائـدـةـ، وـلـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـأـكـلـ أـمـاـمـ الـمـسـافـرـينـ مـنـ الـأـورـوـبـيـينـ بـيـدـيـهـ كـلـتـيـهـاـ أوـ إـحـدـاهـماـ، وـكـانـ الرـفـاقـ قـدـ وـكـلـواـ بـهـ خـادـمـهـ يـحـمـلـ إـلـيـهـ غـدـاءـ وـعـشـاءـ، وـقـدـ أـعـدـاـ إـعـدـاـ حـسـنـاـ؛ فـكـانـ الـخـادـمـ يـحـمـلـ إـلـيـهـ الـطـعـامـ فـيـ موـعـدـهـ، وـيـغـلـقـ بـابـ الـغـرـفـةـ مـنـ دـونـهـ، وـصـوـتـ بـعـضـ النـسـاءـ، وـعـرـفـ الـمـسـافـرـونـ أـنـ عـطـبـاـ قدـ أـصـابـ

محرك السفينة، وبينما كان السَّفُر في ذعرهم وروعهم، كان الرفيق الدرعمي مقبلاً على ذقنه يعمل فيها الموسى، فلاقت ذقني، واتخذت زينتي لأغرق كريماً لا يضحك الناس مني. ثم اندفع في ضحكِ يائسٍ وأخذ يتغنى في شعر البردة كما يتغنى فيه بعض أصحاب الطرق: وإنه لفي هذا العبث، وكأنها هي قد ثابت إليه. وتبلغ مارسيليا مساء ذلك اليوم، ولا يعرف كيف يلقاها، ولا كيف ينفذ من مشكلاتها. ويبلغ الرفاق مدينة مونبلييه التي أمرتهم الجامعة أن يطلبوا العلم فيها عامهم ذاك، ولا يذهبوا إلى باريس حتى يؤذن لهم في الذهاب إليها.